

مكون الزمان في رواية "الجنرال في متاهته"

The time in the novel

"The General in his labyrinth"

د. الجيلالي الغرابي¹

abouwael01@hotmail.fr

¹ جامعة محمد الأول، وجدة- المغرب

تاريخ النشر: 2020/12/31

تاريخ القبول: 2020/11/29

تاريخ الإرسال: 2020/04/22

ملخص:

تعالج هاته الدراسة مكون الزمان في رواية "الجنرال في متاهته" للأديب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز، وقد بدأتها بمقدمة، عرفت فيها عامل الزمان، ثم قسمتها إلى عنصرين، فتناولت في أولهما سير الزمان (الإستباق، الإسترجاع، الوقفة، التسريع) في المتن المدروس، وفي ثانيهما الزمان عند الشخصيات. وأنهيتها بخاتمة، لخصت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج. الكلمات المفتاحية: علم السرد؛ الزمان؛ الشخصيات؛ الجنرال؛ ماركيز.

Abstract:

This study deals with time in the novel "The General in his labyrinth" by the Colombian writer Gabriel Garcia Marquez. I started with an introduction in which I defended time, and I divided it into two elements, I studied, in the first, the course of time in the studied corpus, and I treated, in the second, the time with the characters. I ended with a conclusion summarizing its results.

Keywords: The narratology; The time; The characters; The General; Marquez.

* المؤلف المرسل

مقدمة:

تجمع أغلب المعاجم العربية والغربية على أن الزمان الوقت طويلاً أكان أم قصيراً، وأن جمعه الأزمان والأزمنة والأزمن، وأن أزمنة السنة فصولها الأربعة الربيع والصيف والخريف والشتاء. فقد جاء في "لسان العرب": "زمن: الزمن والزمان: اسم لقليل الوقت وكثيره، وفي المحكم: الزمن والزمان العصر، والجمع أزمن وأزمان وأزمنة. وزمن زامن: شديد. وأزمن الشيء: طال عليه الزمان، والاسم من ذلك الزمن والزمنة، عن ابن الأعرابي. وأزمن بالمكان: أقام به زماناً، وعامله مزامنة وزماناً من الزمن، الأخيرة عن اللحياني. وقال شمر: الدهر والزمان واحد، قال أبو الهيثم: أخطأ شمر، الزمان زمان الرطب والفاكهة وزمان الحر والبرد، قال: ويكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر، قال: والدهر لا ينقطع، قال أبو منصور: الدهر عند العرب يقع على وقت الزمان من الأزمنة وعلى مدة الدنيا كلها، (...). والزمان يقع على الفصل من فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل وما أشبهه. (...). ولقيته ذات الزمّين أي في ساعة لها أعداد، يريد بذلك تراخي الوقت، كما يقال: لقيته ذات العوئم أي بين الأعوام"⁽¹⁾. وورد في "معجم مقاييس اللغة": "زمن: الزاء والميم والنون أصل واحد يدل على وقت من الوقت. من ذلك الزمان، وهو الجين، قليلاً وكثيره. يقال زمان وزمن، والجمع أزمان وأزمنة"⁽²⁾...

إن الزمان مدة، تتميز بتتابع الأيام والليالي والفصول ووقائع الحياة، ووقت محدد تبعاً لما نقوم به فيه، وفترة معتبرة إنطلاقاً من محدودية مدتها، ومن الحيز الذي تشغله داخل مجرى الأحداث، وعصر مضبوط، ولحظة معينة، ومرحلة حياة شعب أو فرد، ولحظة إيجابية أو مناسبة مناسبة، وفصل ملأنا خاص بشيء أو بأخر⁽³⁾، ووسط غير

¹ محمد بن منظور: لسان العرب. طبعة مراجعة ومصححة بمعرفة نخبة من السادة الأساتذة المتخصصين. دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة_مصر 1434هـ/2013م، مج: 4، باب: الزاي، مادة: زمن، ص: 408.

² أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة. تح: عبد السلام محمد هارون. ط: 2، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت_لبنان 1399هـ/1979م، ج: 3، باب: الزاء والميم وما يتلها، مادة: زمن، ص: 22.

³ Jean Dubois _René Lagane _Georges Niobey _Didier Casalis _Jacqueline Casalis _Henri Meschonnic: Larousse: dictionnaire du français contemporain. Librairie Larousse, Paris_France 1971, pages: 1126_1127.

محدد، تتقدم فيه الوجودات في تغييرها والأحداث والظواهر إلى الأمام دونما أي إحجام⁽¹⁾...

يراه بول ثالييري/Paul Valery مصطلحاً دقيقاً شفافاً مقيداً مليئاً غنيّاً بالدلالات والمعاني والإيحاءات، وبحسبه جيرار جينيت/Gérard Genette إشكاليةً جوهريّةً محوريةً، يتجلى ذلك في أنه من الممكن جداً سرد قصة من غير ضبط مكان وقوعها، لكنه من شبه المستحيل عدم موقعتها في الزمان مقارنةً بالفعل السردى، ومن الضروري حكمها في الحاضر أو في الماضي أو في المستقبل⁽²⁾. ويعده ديكرت/Oswald Ducrot وتودوروف/Tzvetan Todorov أنه لا يصلح فقط لتحديد عامل الزمانية، بل إنه يمثل دالاً على علاقةٍ خاصةٍ بين المتكلم أو المتحدث وبين المتكلم عنه أو المتحدث عنه⁽³⁾. ويراه الحكماء مقدار حركة الفلك الأطلس، ويراه المتكلمون عبارةً عن متجدّد، يقدر به متجدّد آخر موهوم، يقال مثلاً: أتيك عند طلوع الشمس، فإن طلوعها معلوم ومجيئه موهوم، فإذا قرن ذلك الموهوم بذلك المعلوم زال الإيهام⁽⁴⁾.

يعد الزمان مكوناً هاماً من مكونات السرد، ويشكل طبيعة العمل، ويحددها، ويؤثر في بقية العناصر الأخرى، وينعكس عليها، ويعد بعداً أساساً لكل عملية سردية، ويشمل صفاتٍ متعددة الأشكال، ويسهم في تطوير بناء العمل السردى، ويؤلف إطاراً محتويّاً ومتفاعلاً مع بقية العناصر البنائية الأخرى. ويستحيل العثور على سردٍ خالٍ من عنصر الزمان، وهو نوعان اثنان، الزمان العام الذي تجري فيه أحداث المتن بصفة عامة، والزمان الخاص الذي يقدم مدّةً خاصّةً معيّنةً محدّدةً، ويتخذ ثلاثة أنساق، هي النسق

¹ _Paul Robert:Le grand robert de la langue française:Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française. Entièrement revue et enrichie par Alain Rey. Deuxième édition, Paris_France 1985, tome:9, page:217.

² _Gérard Genette:Figures III. Collection Poétique, Editions du Seuil, Paris_France 1972, page:228.

³ _Oswald Ducrot _Tzvetan Todorov:Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. Collections Points, Editions du Seuil, 1ère publication, Paris_France 1972, page:398.

⁴ _علي بن محمد الشريف الجرجاني:التعريفات. إعتنى به:مصطفى أبو يعقوب. ط:1، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت_لبنان، دمشق_سوريا 1427هـ/2006م، ص:68.

الصاعد السائر في اتجاه الأمام، والنسق المتقطع المتكسر المتشظي، والنسق الهابط العائد إلى الوراء...

أولاً: سير الزمان: لقد استعمل غابرييل غارسيا ماركيز⁽¹⁾ في روايته "الجنرال في ماتهته"⁽²⁾ مؤشرات زمنية متنوعة، منها:

أ. الاسترجاع

إن الاسترجاع تقنية سردية موجودة في السردين الكلاسيكي والحديث، وسمي استرجاعاً، لأن السارد يتذكر أحداثاً سبقت، أو يسترجع أوصافاً سلفت، فيعود بالقارئ إلى الماضي لإنارة الحاضر. ويعين على تلوين سطح الحكى، وتوقيف تدفق الزمان، والابتعاد عن التعجيل بوضع حد لخطاب المتن. ويطلق عليه أيضاً التذكر، والعودة إلى الوراء.

ضمت رواية "الجنرال في ماتهته" إسترجاعات عديدة، منها أنه عندما استقال الجنرال بوليفار، تعرض الجنود الفزوليون الموالون له للإهانات الكثيرة والاستفزازات العديدة في الشوارع، فخافوا على مصيرهم، وتمردوا، وطالبوا بمستحقاتهم، وانطلقوا في عرض عسكري نحو مسقط رؤوسهم، فحثت الشراذم الكلاب على مهاجمتهم، وألقت بين أقدامهم أمشاطاً من الأسهم النارية لإرباك مشيتهم، وهو أمر لم تقم به حتى مع الوحدات العسكرية الإسبانية المستعمرة المعادية، واسترجع السارد حادثة هروب الوالي الإسباني، فقال: "...)، فقبل إحدى عشرة سنة، وبعد ثلاثة قرون طويلة من السيطرة الإسبانية، هرب الوالي الإسباني الشرس دون خوان سامانو عبر هذه الشوارع ذاتها،

¹ غابرييل خوسي دي لا كونكورديا غارسيا ماركيز/Gabriel García Márquez: رواي كولومبي، ولد يوم السادس من شهر مارس من سنة سبع وعشرين وتسعائة وألف ميلادية، وتوفي بمنزله في مدينة مكسيكو بعد ظهر يوم الخميس السابع عشر أبريل من عام أربعة عشر وألفين ميلادية، الموافق يوم السابع عشر جادى الثانية من عام خمسة وثلاثين وأربعائة وألف هجرية. قضى معظم عمره في المكسيك والقارة الأوروبية، ويعد من أبرز كتاب صناعة الرواية عامة، ومن أشهر كتاب أمريكا اللاتينية خاصة، وله مؤلفات كثيرة، منها: _مائة عام من العزلة. تر: محمد الحاج خليل. الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط:4، بيروت_لبنان 2010م. _الحب في زمن الكوليرا. تر: شري ساي الجندي. الناشر: دار الجندي للنشر والتوزيع _دار الشفيق للنشر والتوزيع، ط:1، دمشق_سوريا 2009م.

_خريف البطريك. تر: نمارك جمال. الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط:1، بيروت_لبنان، القاهرة_مصر، تونس_تونس 2018م.

_12 قصة مهاجرة. تر: حسام أبو سعدة. الناشر: دار الكتاب العربي، ط:1، دمشق_القاهرة، سوريا_مصر 2006م.

² غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في ماتهته. تر: صالح علاني. الناشر: دار المدى للثقافة والنشر، ط:1، دمشق_بيروت_بغداد، سوريا_لبنان_العراق 2007م.

³ _عنوان الرواية الأصلي باللغة الإسبانية هو "El General en su laberinto".

متنكراً بزي زائر غريب، لكنه كان يحمل معه صناديقه المترعة بتمائيل آلهة مذهب وزمرد غير مصقول، وطيور توكان مقدسة؛ وعلب زجاجية براقعة فيها فراشات موثو، ولم يعدم يومها من يبيكه من الشرفات، ويلقي إليه بوردة، ويتمنى له من أعماق قلبه بحراً هادئاً ورحلة موفقة.⁽¹⁾

ومنها أن السيدة مانويلا ساينث كانت تزور الجنرال بوليفار في مزرعة فوتشا بعد تقديمه استقالته، وتنقل له الأخبار، وتحمل له الصحف والحلويات، وتقرأ له، وتراجع المراسلات معه، فاسترجع السارد قصة تعارفهما، فقال:

"لقد تعارفا في كيتو قبل ثماني سنوات، في الحفلة الراقصة التي أقيمت احتفالاً بالتحريز، وكانت ما تزال حينئذ زوجة للدكتور جيمس ثورن، الطبيب الإنكليزي المندمج بأرستقراطية مدينة ليما في أواخر عهد الولاية الإسبانية."⁽²⁾

ومنها أن الجنرال بوليفار كان معكراً المزاج بسبب العداوة المستترة التي أحس بها في شوارع مدينة سانتافي دي بوغوتا وهو يغادرها، وبسبب بعض الشوائم الموجهة إليه التي رآها مكتوبةً على جدران أديرتها، فاستعاد السارد الطريقة التي كان يستقبل بها الجنرال في هاته المدينة أيام أمجاده، فقال: "في مدينة كان أقل إعلان عن وصوله إليها يتحول إلى عيد وطني. فقبل أقل من ثلاث سنوات، لدى عودته من حروب الجنوب الظافرة، مثقلاً بأمجاد لم ينل مثلها أي أمريكي من الأحياء والأموات، حظي باستقبال عفوي صار أحد معالم ذلك العصر. كان الناس في ذلك الزمان يتعلقون بلجام جواده، ويوقفونه في الشارع ليشتكوا إليه من الخدمات العامة أو من الضرائب، أو ليطالبوا منه العطايا، أو لمجرد الشعور بالاقتراب من ألق العطمة، وكان يولي تلك المطالب الشارعية اهتماماً لا يقل عن اهتمامه بأخطر الشؤون الحكومية، ويبيدي معرفة مذهلة بالمشاكل الخاصة بكل فرد، أو بحالة تجارته، أو بمعاناته الصحية، وكان يترك لدى كل من يتحدث إليه إحساساً بالمشاركة، لبرهة، في ملذات السلطة."⁽³⁾

¹ _ غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 17.

² _ المرجع نفسه، ص: 31.

³ _ غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 47_48.

ومنها أن سكان مدينة كارتاخينا دي إندياس إستقبلوا الجنرال بوليفار، بعد إستقالته، إستقبالاً حزيناً، مما جعله يتذكر الاستقبال المجيد الذي خصه به سكان مدينة كاراكاس من قبل، يقول السارد: "أما الجنرال الذي كان يحيي الناس بقبعته وهو في العربة المشققة، فلم يستطع إلا أن يرى نفسه تحت ضوء من الشفقة، حين قارن ذلك الاستقبال التافه بدخوله الظافر إلى كاراكاس في شهر آب العام 1813 متوجاً بالغار⁽¹⁾ في عربة تجرها أجمل ست فتيات في المدينة، ووسط حشود مغتسلة بالدموع خلدته في ذلك اليوم باسمه المجيد: المُحَرَّر. كانت كاراكاس ما تزال في ذلك الحين بلدة نائية في الولاية الاستعمارية، قبيحة وكئيبة وبائسة، لكن أمسيات أفيلا كانت مؤثرة تمزق القلب حيناً".⁽²⁾

يعكس الإسترجاع الأول المعاملة السيئة التي حظي بها الجنود الفنزويليون الذين خاض معظمهم حروب التحرير في أمريكا الجنوبية، ويظهر فرار المستعمر الظالم دون حساب ولا عقاب، حاملاً معه ثروات البلاد. ويحدد الإسترجاع الثاني مكان تعارف كل من الجنرال بوليفار والسيدة مانويلا ساينث، ومدته، ومناسبته. ويصور الإسترجاعان الثالث والرابع معاً المكانة العظيمة التي كان يحظى بها الجنرال قبل اسقالته من منصب الرئاسة، والوضعية المزرية المريعة التي صار عليها بعد ذلك، فتبخرت أحلامه، وانهد صرح أماله وتطلعاته...

ب. الإستباق

إن الإستباق مقطعٌ سرديٌّ، يسرد أحداثاً سابقةً عن أوانها، أو يتوقع حدوثها⁽³⁾. وهو يمثل عكس الإسترجاع، ويسمى القفزة إلى الأمام كذلك.

شملت رواية "الجنرال في متاهته" عدة استباقات، منها أن الجنرال بوليفار كان يرى في الموت مخاطرةً مهنيةً لا مفر منها، ويخوض حروبه في خطوط الخطر، وينتقل وسط النيران المتبادلة بهدوءٍ جنونيٍّ، ويتنقل دون حراسة ولا احتياطات، ويأكل ويشرب مما يقدم إليه، وكأنه كان يعلم مصيره النهائي، فاستبق السارد الأحداث، وأخبرنا بنهايته

¹ _الغار/Laurus nobilis: نبات الغار أو الرند أو ورق موسى، هو نبات عطري، ينتشر في دول البحر الأبيض المتوسط، وقد استعمله اليونانيون والرومانيون مادة طيبة، وتستعمل أوراقه نوعاً من التوابل...

² _غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 187.

³ _Gérard Genette: Figures III. Page: 82.

قائلاً: "ومانويلا وحدها هي التي كانت تعرف أن إهماله ذاك ليس غفلة ولا قدرية، وإنما هو يقين سوداوي بأنه سيموت في فراشه، فقيرا وعاريا، ودون امتنان شعبي يمنحه العزاء."⁽¹⁾

وبالفعل، فقد توفي الجنرال بوليفار، في مزرعة فلوريدا دي سان بيدرو أليخاندرينو، مريضاً عليلاً فقيراً وحيداً محاطاً بعددٍ قليلٍ جداً من أصدقائه المخلصين الأوفياء⁽²⁾... ومنها أن السارد كان بصدد الحديث عن معاناة الجنرال بوليفار خلال رحلته الأخيرة، واستبق الأحداث، ليخبرنا بمصير مرافقه وكبير خدمه خوسيه بالاثيوس قائلاً: "سيعيش خوسيه بالاثيوس سنوات طويلة بعد موت الجنرال، وسيتاح له متسع من الوقت ليراجع تفاصيل حياته معه، ولن يبقى أي تفصيل تافه في الظل (...).

وهو ما حدث عملياً فقد بدد أمواله مثلما بدد الجنرال أملاكه من قبل. وبقي بعد موت سيده في كارتاخينا دي إندياس، يعيش على الصدقات. جرب الخمرة ليُغرق ذكرياته، فانقاد لها. ومات وهو في السادسة والسبعين، متمرعاً في الوحل بفعل آلام هذيان الكحول الارتعاشي، في مغارة متسولين من خريجي الجيش المُحرّر."⁽³⁾

ومنها أنه كان يتحدث عن لقاء الجنرال بوليفار بصديقه القديم الجنرال لورينثو كاركامو في مدينة سانتا كروث دي مومبوكس، وتصالهما، وندبهما أمراضهما، وتحسرها لتفاهة الشعوب وجحود الانتصارت، فاستبق الزمان، وأنبأنا عن موت كاركامو قائلاً: "بعد أيام قليلة من ذلك وفيما هو في تورباكو، سيصله نبأ موت الجنرال كاركامو."⁽⁴⁾

ومنها أن الجنرال بوليفار استيقظ صباحاً بعد نوم قلق، وأخبر مرافقه خوسيه بالاثيوس بأن النواقيس ستقرع في مدينة كاراكاس إبتهاجاً بيوم موته، فاستبق السارد ذلك قائلاً: "وقد جرى ما هو أكثر من ذلك، فقد كتب حاكم ماراكايبو⁽⁵⁾ يوم علم بخبر موته: "إنني أسارع إلى إحاطتكم علماً بهذا الحدث العظيم الذي سيحمل أفضالاً لا حصر

¹ _ غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 14.

² _ غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 251_287.

³ _ المرجع نفسه، ص: 114 و 286.

⁴ _ المرجع نفسه، ص: 133.

⁵ _ ماراكايبو/Maracaibo: مدينة تقع شمال غرب دولة فنزويلا، وهي ثاني أكبر مدنها بعد العاصمة كاراكاس، وقد تم تأسيسها يوم 08 شتنبر 1529م...

لها لقضية الحرية ولسعادة البلاد. فعبقري الشر، وشعلة الفوضى، وطاغية الوطن قد غاب عن الوجود". وقد تحول هذا التبليغ الموجه أساساً لإعلام حكومة كراكاس بالأمر، إلى بيان وطني.⁽¹⁾

ومنها أن الجنرال بوليفار، لما وصل مدينة سانتا مارتا، أقام في مقر الجمارك القديم، وفضل قضاء معظم وقته في الصالة الرئيسة التي كانت بها طاولةً وحيدةً مصنوعةً من خشب المُغْنة المزخرف، فاستبق السارد الأحداث، وأعلمنا بأن جسد الجنرال سيسعى على تلك الطاولة بعد ستة عشر يوماً، فقال: "...). وكانت هناك الطاولة الوحيدة المصنوعة من خشب المُغْنة المزخرف، والتي سيسعى عليها جسده المحنط بعد ستة عشر يوماً ليعرض في حجرة خانقة، بسترة رتبته الزرقاء، لكن دون أزرارها الذهبية الثمانيّة التي سينزعها أحدهم في فوضى الموت."⁽²⁾

ولما انتقل الجنرال بوليفار إلى بيت السيد ميير الريفي في مزرعة فلوريدا دي سان بيدرو أليخاندرينو، قطع الطريق المعفر في عربة، فاستبق السارد الوقت، وخبرنا بأنه سيموت في تلك المزرعة، وسيجتاز ذاك الطريق في الاتجاه المعاكس جثّةً هامدةً بعد عشرة أيام، فقال: "قطع الجنرال، في عربة السيد ميير، الطريق المعفر الذي سيجتازه جسده بدونه بعد عشرة أيام، في الاتجاه المعاكس، وسيكون ملفوفاً ببطانية عتيقة، فوق عربة تجرها الجواميس.

(...)، ومعصرة القصب الأخرى في حياته التي يقوده إليها القدر المحتوم كي يموت."⁽³⁾ ومنها أن الكولونيل لويس بيير دي لاکرو أخبر السيدة مانويلا ساينث بنياً احتضار الجنرال بوليفار، فانطلقت في اتجاه مدينة سانتا مارتا، لكنها وصلت بعد فوات الأوان، فاستبق السارد الأحداث، وأعلمنا بنهايتها التعيسة قائلاً:

"غرقت في ظلال ذاتها، دون أية مشاغل أخرى سوى اهتمامها بصندوقين يضمن أوراق الجنرال، (...)، قام الجنرال سانتاندير بنفها من البلاد. وخضعت مانويلا لمصيرها بوقار ملتهب، في جامايكا أول الأمر، ثم في تيه كتيب سينتهي بها إلى بايتا، وهو ميناء قدر على المحيط الهادي (...). وهناك راحت تسلو النسيان بالتطريز، وتبدخين سجائر

¹ _ غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 214.

² _ المرجع نفسه، ص: 266.

³ _ غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 272_273.

الحوذيين، وصنع حيوانات الحلوى التي كانت تبيعها للبجارة حين يسمح لها التهاب مفاصل يديها بذلك. أما زوجها، الدكتور ثورن، فقد قتلوه طعنًا بسكين في منطقة مقفرة في ليما، (...).

(...). وعندما تقدمت بها السن، وأقعدها في أرجوحة النوم كسر في عظم ردفها، صارت تقرأ البخت في أوراق اللعب، وتقدم نصائح في الحب للعاشقين. ماتت في جائحة الطاعون، عن تسع وخمسين سنة، وقد أحرقت الشرطة الصحية كوخها مع أوراق الجنرال الثمينة، وبينها رسائله الحميمة.⁽¹⁾

ومنها أن الملازم فرناندو، لما توفي عمه الجنرال بوليفار، كان يبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا، فأخبرنا السارد بأنه سيعمر بعد ذلك بكثير، فقال: "وسيعيش إلى أن يبلغ الثامنة والثمانين دون أن يكتب أكثر من بضع صفحات متفرقة، لأن القدر أمده بحظ عظيم حين أفقده الذاكرة."⁽²⁾ ...

أدى الإستباق في المتن وظيفة مهمة، تتجلى في كونه أخبرنا بنهاية الجنرال بوليفار المساوية، ومكانها، وصور لنا مصير مرافقه وكبير خدمه خوسيه بالاثيوس المزري، وحدثنا عن موت صديقه الجنرال لورينثو كاركامو، وأبرز لنا فرح خصومه بنبا موته، وعكس لنا عدم تمكن صديقه السيدة مانويلا ساينت من الوصول في الوقت المناسب قبل هلاكه، وحياتها المريعة بعده، وتعمير فرناندو ابن أخيه طويلا...

ج. الوقفة

تدعى الوقفة البطء والتبطيء والتعطيل أيضا، وهي تقنية يلجأ إليها السارد بغية توقيف الحكيم، وتعطيله. وأهم ما جسدها الوصف:

- الوصف

إن الوصف "هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات"⁽³⁾، وأحسنه "ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثل عيانا للسامع"⁽⁴⁾... لقد سيطر الوصف على رواية "الجنرال في

¹ _ المرجع نفسه، ص: 280_281.

² _ المرجع نفسه، ص: 285.

³ _ قدامة بن جعفر: نقد الشعر. نخ وتع: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، بدون تاريخ، ص: 130.

⁴ _ الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، وقده. حققه، وفصله، وعلق على حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ط: 5، بيروت_لبنان 1401هـ/1981م، ج: 2، ص: 294.

متاهته " سيطرةً ملحوظةً، وغطى مساحةً منها مهمةً، خاصة حين تعلق الأمر بتصوير ملامح الشخصيات، ووصف الطبيعة والأمكنة. من ذلك قول السارد مثلاً: "لم تكن الأخبار الشائعة عن مرضه المميت كذلك بالمؤثر الذي يؤكد أنه سيذهب. لم يكن هناك من يشك بأمراضه، بل على العكس من ذلك: فمنذ عودته الأخيرة من حروب الجنوب، أحس جميع من رأوه وهو يمر تحت أقواس الأزهار بأنه لم يرجع إلا لكي يموت. وبدلاً من بالومو بلانكو⁽¹⁾، حصانه التاريخي، جاء ممتطياً يومها بغلة متساقطة الشعر، وتغطي ردفها حصيرة. كان شعره قد شاب، وخطت جبهته غيوم شاردة، وكانت سترته العسكرية متسخة وأحد كمها مفتوق. كان الجلال قد غادر جسده. وفي السهرة الصامتة التي أقاموها على شرفه في مقر الحكومة في تلك الليلة، بقي منطوياً على ذاته، ولم يُعرف أبداً إذا ما كانت تحيته لأحد وزرائه باسم وزير آخر هي مسألة خبث سياسي أم مجرد سهو."⁽²⁾

وقوله أيضاً: "كان يذهب دون حراسة، ودون أن يرافقه الكلبان الوفيان اللذان كانا يرافقانه حتى في ساحات المعارك أحياناً، ودون اصطحاب أي حصان من خيوله الملحمية، التي بيعت إلى فرقة الخيالة لزيادة الأرصدة المالية اللازمة للرحلة. كان يذهب حتى النهر القريب، سائراً فوق فرشاة من الأوراق المتعفنة، عبر درب تحف به أشجار حور لا نهاية لها، متقياً ربح البرية الجليدية بالعباءة المصنوعة من وبر الفيكونيا⁽³⁾، والجزمة المبطنة بالفراء، وقيعته الخضراء التي لم يكن يستخدمها فيما مضى إلا للنوم. ويجلس طويلاً للتأمل مقابل جسر العوارض المفلتة الصغير، في ظل أشجار الصفصاف الكثيفة، ساهماً بحركة الماء التي قارنها يوماً بقدر بني البشر، في تشبيهه بليغ استقاه من أساليب معلمه في سنوات شبابه، دون سيمون رودريغيث. كان أحد حراسه يلاحقه دون أن يُشعره بذلك، إلى أن يرجع ميللاً بالندى، بنفسٍ واهنٍ لا يكاد يكفيه لأكثر من صعود درج بوابة المدخل، هزياً ومذهولاً، ولكن بعينين مثل عيني مجنون سعيد. كان يشعر براحة عظيمة في تلك الزهات الهروبية، حتى إن الحراس المختبئين بين الأشجار كانوا

¹ بالومو بلانكو/Palomo Blanco: تعني باللغة الإسبانية الحمامة البيضاء.

² غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 22.

³ الفيكونيا/La vicuña: جنس من الحيوانات الثديية البرية، يعيش في جبال أمريكا الجنوبية، وهو مهم بالنسبة للسكان المحليين نظراً لجودة وبره...

يسمعونه يردد أغنيات الجنود، مثلما كان يفعل في سنوات مجده البعيدة وهزائمه الهوميرية.⁽¹⁾

وقوله كذلك: "كانت الساعة نحو السادسة، وكان المطر الألفي قد توقف. لكن الدنيا كانت ما تزال غائمة وباردة، وكان البيت الذي تحتله الوحدة العسكرية قد بدأ يعبق برائحة الثكنة. نهض رجال الخيالة والجنود بجلبه حين رأوا الجنرال بين أعوانه، وهو يتقدم مطرقاً من نهاية الممر. كان أخضر في تألق الفجر، يضع عباءته على كتفيه. ويعتمر قبعة تزيد حوافها العريضة من قتامة ظلال وجهه. كان يغطي فمه بمنديل مضمخ بماء الكولونيا، عملاً بالخرافة الأنديزية القديمة للوقاية من الهواء الخبيث لدى الخروج المفاجئ إلى العراء. لم يكن يضع أية إشارات تدل على رتبته. كما لم يعد لديه أدنى قدر من السلطة الكبيرة التي كان يتمتع بها في أزمنة أخرى. لكن هالة السلطة السحرية كانت تميزه وسط موكب الضباط الصاخب. توجه إلى صالة الاستقبال، ماشياً بتمهل في الممر المفروش بالحُصُر المحاذي للحديقة الداخلية، غير مكترث بجنود الحراسة الذين كانوا يتأهبون لدى مروره. وقبل أن يدخل إلى الصالة خبأ المنديل في كفه، مثلما كان يفعل رجال الإكليروس وحدهم في ذلك الحين، وأعطى القبعة التي كان يعتمرها لأحد مرافقيه."⁽²⁾

وقوله كذلك: "في أصعب مكان من الطريق المنحدر التقوا بمجموعة من الهنود تحمل زمرة من الرحالة الأوروبيين في محفات معلقة على ظهورهم. وفجأة، قبل انتهائهم من النزول بقليل، مرفارس مجنون يعدو بأقصى سرعة في الاتجاه الذي كانوا يسرون فيه. كان يضع على رأسه قلنسوة حمراء تكاد تغطي وجهه، فأثارت سرعته بلبلة أوشكت معها بغلة الكابتن إيبارا أن تهوي إلى الوادي مجفلة. وقد استطاع الجنرال أن يصرخ به: "انظر أين تمضي، عليك اللعنة!" لاحقه بنظره إلى أن توارى عند أول منعطف، لكنه واصل ملاحظته بعينه كلما عاد إلى الظهور في انحناءات الطريق السفلي.

وفي الساعة الثانية ظهراً، داروا حول التلة الأخيرة، وانفتح الأفق أمامهم عن سهل لامع، تريض ساكنة في نهايته مدينة أوندا الشهبيرة، بجسرها المبنى من حجارة قشتالية

¹ _ غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 32-33.

² _ غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 39.

فوق النهر العظيم الموحد، وبأسوارها المهدامة وبرج كنيسها الذي خربه الزلزال. تأمل الجنرال الوادي المتقدم، لكنه لم يسمح لنفسه بإبداء أي انفصال، باستثناء ما قاله عن الفارس ذي القلنسوة الحمراء الذي كان يجتاز الجسر في تلك اللحظة بعدو متواصل. فقد عاد ضوء الحلم يتقد في ذاكرته حينئذ، وقال: يا إله الفقر. لا يمكن تفسير هذه السرعة إلا بأنه يحمل رسالة إلى كاساندرو فيها خبر رحيلنا.⁽¹⁾

وقوله أيضاً: "...). كان قد خرج ماشياً من بيت المحافظ، وسار ببطء شديد وهو يغطي فمه بمنديل مضمخ بماء الكولونيا.

كانت حالة الجو تشير إلى يوم غائم. وكانت حوانيت الشارع التجاري مفتوحة منذ الفجر. وكان بعضها يبيع بضائعه خارج الحوانيت، بين أنقاض البيوت التي ما زالت مهدامة منذ زلزال وقع قبل عشرين سنة. رد الجنرال ملوحاً بالمنديل لكل من حيوه من النوافذ. لكنهم كانوا قلة قليلة، لأن معظم الناس كانوا يرونهم صامتون، وقد أذلهم سوء حالته. كان يرتدي قميصاً قصيراً الأكمام، وينتعل جزمته الوحيدة التي من طراز ويلينغتون، ويعتمر قبعة من القش الأبيض. وكان الكاهن قد صعد على كرسي وضعه أمام مدخل الكنيسة ليلقي عليه خطبة، لكن الجنرال كارينيو منعه من ذلك، فاقرب الجنرال منه وصافحه.

وصل إلى المنعطف وكانت نظرة واحدة منه كافية ليدرك أنه لن يستطيع الوصول إلى أسفل الراهية، لكنه بدأ الصعود متشبثاً بذراع الجنرال كارينيو، إلى أن بدا عليه أنه لم يعد قادراً على التقدم أكثر. حينئذ حاولوا إقناعه باستخدام كرسي يدوي كان بوسادا غوتيريث قد أعدده للضرورة. لكنه قال مرتبكاً: "لا يا جنرال، أرجوك. جنبني هذه المذلة."

توصل إلى لمس الحافة السفلية للراهية، وكان ذلك بقوة الإرادة أكثر مما هو بقوة الجسد، وبقي لديه من الحماس ما يكفي للنزول حتى المرفأ دون مساعدة من أحد. وهناك ودع كل فرد من أفراد الموكب الرسمي بعبارة لطيفة، مرفقاً ذلك بابتسامة مصطنعة كي لا يبدو عليه أنه، في ذاك الخامس عشر من أيار ذي الزهور، كان يمضي في رحلة العودة إلى اللاشيء.⁽²⁾

¹ _المرجع نفسه، ص: 78-79.

² _غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 98-99.

وقوله كذلك: "كان يمكن لليوم الأول من الإبحار أن يكون يومهم الأخير. فقد أظلم الجو منذ الساعة الثانية بعد الظهر، وهاجت المياه، وزعزت الرعود والبروق الأرض. وبدأ أن المجذفين قد أصبحوا عاجزين عن كبح السفن من التحطم في جروف الضفاف. راقب الجنرال من العشة مناورة الإنقاذ التي كان يقودها القبطان سانتوس بالصراخ، وبدأ أن عبقريته الملاحية لم تكن كافية لمواجهة مثل ذلك الهيجان. راقب الجنرال المناورة بفضول في أول الأمر، ثم بجزع لا سبيل إلى كبحه. ثم انتبه وهم في ذروة الخطر إلى أن القبطان قد أصدر أمراً خاطئاً. حينئذ انقاد لغريزته وشق طريقه وسط الريح والمطر، وأصدر أمراً مناقضاً لأمر القبطان بعد أن أصبحوا عند حافة الهاوية، بأن صاح قائلاً: "ليس من هنا! إلى اليمين، إلى اليمين، اللعنة!"

تفاعل المجذفون مع الصوت المتهديج الذي ما زال يتمتع مع ذلك بسلطة لا تقاوم. وتولى القيادة دون أن ينتبه إلى ذلك، إلى أن تجاوزوا الخطر. سارع خوسيه بالاثيوس إلى إلقاء بطانية عليه. وأسنده كل من ويلسون وإيبارا ليبقى متماسكاً في مكانه، وتنحى القبطان سانتوس جانبا، موقنا بأنه قد أخطأ مرة أخرى بين ميسرة المركب وميمنته، وانتظر بمذلة جندي إلى أن بحث الجنرال عنه ووجده يتطلع بنظرة مرتعشة، فقال له: "اعذرني أيها القبطان."⁽¹⁾

وقوله أيضاً: "لم يرضخ مونتيلا للاستسلام. ودّع ضيوفه باكراً كي يتمكن المريض من الراحة، لكنه أبقاه طويلاً بعد ذلك في الشرفة الداخلية، فيما كانت صبية هزيلة ترتدي عباءة من الموسلين، تكاد تكون غير مرئية، تعزف لهما على قيثارة سبع أغنيات غرامية. كانت معزوفات جميلة جداً، وقد عُزفت برقة بالغة جعلت الرجلين العسكريين عاجزين عن الكلام إلى أن كنست رياح البحر آخر رماد الموسيقى من الجو. بقي الجنرال مخدراً في الكرسي الهزاز، طافياً في أمواج القيثارة، وفجأة اهتز من أعماقه وغنى بصوت خافت جداً، لكنه واضح وحسن النغمة. الكلمات الكاملة للمعزوفة الأخيرة. ثم التفت في النهاية إلى العازفة مدمماً بامتنان خرج من أعماق روحه، لكن ما رآه لم يكن سوى القيثارة وإكليل من الغار الذابل."⁽²⁾

¹ _المرجع نفسه، ص: 101_102.

² _غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 189_190.

وقوله كذلك: "تفحص الحجرة ببصيرة أيامه الفائتة، ورأى الحقيقة لأول مرة: السيرير الأخير المستعار، وخوان الزينة المحزن الذي لن تعيد مرآته عكس صورته، وإبريق غسل الأيدي الخزفي مع الماء والمنشفة والصابون من أجل أيدٍ أخرى، والسرعة القاسية التي تدور بها الساعة ذات الأضلاع الثمانية بجموح نحو الموعد المحتوم في السابع عشر من كانون الأول، الساعة الواحدة وسبع دقائق من مساءه الأخير. حينئذ، قاطع ذراعيه على صدره، وبدأ يسمع أصوات العبيد المتألقة وهم ينشدون صلاة السادسة في معاصر القصب، ورأى من خلال النافذة دُرّة الزهرة وهي تمضي في السماء إلى الأبد، والثلوج الخالدة، وشجيرة اللبلاب الجديدة التي لن يرى تفتّح أزهارها الصفراء يوم السبت التالي في البيت المغلق حداداً، وومضات الحياة التي لن يعيد تكرارها مطلقاً، وإلى أبد الأبد..."⁽¹⁾

يسعى الوصف في هذا العمل إلى رسم صورة فنية وجمالية وبلاغية بغية وضع المتلقي داخل المشهد الذي يصبو الكاتب إلى نقله، وهو لا يقف عند حدود تصوير الأفضية والطبيعة، بل يتجاوزها إلى سبر أغوار الشخصيات، وإبراز أحاسيسها النفسية، وإظهار بواطنها...

د. التسريع

يمثل التسريع عكس الوقفة، وهو وسيلة، يلجأ إليها السارد لتكثيف زمان المسرود، والرفع من وتيرة سيره. وظهر جليا في التلخيص، والحذف:

- التلخيص

يتم التلخيص حين "تقدم مدة غير محددة من الحكاية ملخصة بشكل توجي معه بالسرعة"⁽²⁾، ويعمل على تسريع توالي الأحداث⁽³⁾، والقفز على ما هو أقل أهمية داخل المتن⁽⁴⁾، ويسمى الخلاصة والإيجاز والإختزال...

¹ _المرجع نفسه، ص:287.

² _جيرار جينيت وآخرون: نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير. تر: مصطفى ناجي، دار الخطابي للطباعة والنشر، ط:1، مطبعة منشورات كوث، الدار البيضاء_المغرب 1989م، ص:126.

³ _Jean Michel Adam: le récit. Que sais-je? 1ère édition, Presses Universitaires de France (P. U. F), Paris_France 1984, page:42.

⁴ _Roland Bourneuf _Real Ouellet: L'univers du roman. 1ère édition, Presses Universitaires de France (P. U. F), Paris_France 1972, page:59.

يتحدث السارد عن استيقاظ الجنرال بوليفار بمزاج متعكر، وتحسنه عبر درب من الروابي المتعرجة، واعتدال الجو، وصفاء الضوء، ورفضه دعوة مرافقيه إياه إلى أخذ قسط من الراحة خوفاً منهم على صحته، ومواصلتهم السير دون أكل حتى بلوغهم الأراضي الدافئة، يتحدث عن هذا كله في أربعة أسطر وكلمتين فقط، فيقول:

"استيقظ الجنرال في فاكاتاتيفا⁽¹⁾ معتكر المزاج، لكنه راح يتحسن شيئاً فشيئاً مع نزولهم من السهل عبر درب بين رواب متعرجة، وبدأ الجو بالاعتدال، وصار الضوء أقل صفاء مما كان عليه. دعوه للراحة في عدة مناسبات، لقلقهم لحال جسده، لكنه فضل مواصلة المسير دون غذاء حتى الأراضي الدافئة."⁽²⁾

ويتحدث عن اليوم الأول لخروج الجنرال بوليفار من مدينة كارتاخينا دي إندياس في اتجاه مدينة سانتا مارتا في نصف جملة، ليمر إلى اليوم الثاني، فيقول: "(...) ففي الأول من شهر تشرين الأول بدأ الرحلة. وفي اليوم الثاني منه، (...)".⁽³⁾

الحذف

يقصد بالحذف حذف مدّة من المحكي، والسكوت عنها تماماً، و"تخطي مدد زمنية شتى تتلاشى إلى العدم، وتلك هي الحالة القصوى في تسريع الحكاية."⁽⁴⁾

حدثنا السارد عن تلقي الجنرال بوليفار خبر موافقة الحكومة الجديدة على راتبه التقاعدي يوم الأربعاء السادس عشر من شهر حزيران، وبعثه رسالة رسمية إلى الرئيس الجنرال دون خواكين موسكيرا، فقال: "يوم الأربعاء، السادس عشر من حزيران، تلقى نبأ مصادقة على راتبه التقاعدي مدى الحياة، (...) فبعث إشعاراً بالاستلام إلى الرئيس موسكيرا مع رسالة رسمية لا تخلو من سخرية، (...)".⁽⁵⁾

¹ _فاكاتاتيفا/Facatativá: مدينة كولومبية، تقع شمال شرقي العاصمة بوغوتا، وقد أسسها المسؤول الإسباني ديغو غوميز دي مينا/Diego Gómez de Mena سنة 1600م...

² _غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 50-51.

³ _المرجع نفسه، ص: 226.

⁴ _جان ريكاردو: قضايا الرواية الحديثة. تر وتغ: صباح الجهم، وزارة الثقافة، دمشق-سوريا 1977م، ص: 254.

⁵ _غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 185.

وحذف مدة أسبوعٍ كاملٍ، وأخبرنا عن تلقيه جواز سفره، فقال: "ويوم الثلاثاء، الثاني والعشرين من الشهر نفسه، تلقى جواز السفر ليغادر البلاد، فهزه في الهواء قائلاً: إننا أحرار."⁽¹⁾

ثم حذف مدة يومين كاملين، وأعلمنا عن استيقاظه من نومه، وقراره السفر إلى مدينة كارتاخينا دي إندياس، فقال: "بعد يومين من ذلك، وحين استيقظ بعد ساعة من النوم السيء"⁽²⁾، فتح عينيه وهو في أرجوحة النوم، وقال: "إننا حزينون". عندئذ قرر السفر إلى كارتاخينا في الحال، منتهزاً فرصة أن ذلك اليوم كان يوماً غائماً وبارداً."⁽³⁾ وأخبرنا عن طلوع صباح اليوم العاشر من شهر كانون الأول على الجنرال وهو في حالة سيئة جداً، واستدعاء الأسقف إستيفيث، وتحدثه إلى الطبيب ريفيرند، فقال: "طلع صباح يوم العاشر من كانون الأول على الجنرال وهو في حالة شديدة السوء، فاستدعوا الأسقف إستيفيث على عجل، لعله يرغب في الاعتراف. (...) وعندما تمالك نفسه أخيراً، طلب من الجميع أن يخرجوا ليتحدث إلى الطبيب على انفراد."⁽⁴⁾

ثم حذف مدة ستة أيامٍ كاملةٍ، ليصور لنا اللحظات الأخيرة من حياته يوم السابع عشر من الشهر نفسه، فقال: "تفحص الحجرة ببصيرة أيامه الفاتئة، ورأى الحقيقة لأول مرة: السرير الأخير المستعار، وخوان الزينة المحزن الذي لن تعيد مرآته عكس صورته، وإبريق غسل الأيدي الخزفي مع الماء والمنشفة والصابون من أجل أيدي أخرى، والسرعة القاسية التي تدور بها الساعة ذات الأضلاع الثمانية بجموح نحو الموعد المحتوم في السابع عشر من كانون الأول، الساعة الواحدة وسبع دقائق من مساءه الأخير. حينئذ، قاطع ذراعيه على صدره، وبدأ يسمع أصوات العبيد المتألقة وهم ينشدون صلاة السادسة في معاصر القصب، ورأى من خلال النافذة دُرّة الزهرة وهي تمضي في السماء إلى الأبد، والثلوج الخالدة، وشجيرة اللبلاب الجديدة التي لن يرى تفتح أزهارها الصفراء

¹ _المرجع نفسه، ص: 185.

² _السيء: الصواب هو: السيء.

³ _غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 185.

⁴ _المرجع نفسه، ص: 286.

يوم السبت التالي في البيت المغلق حداداً، وومضات الحياة التي لن يعيد تكرارها مطلقاً، وإلى أبد الآبدين."⁽¹⁾ ...

يلاحظ أن الحذف الأول محدد، وأن مدته معلومة مضبوطة، وأن الحذف الثاني غير محدد، وأن مدته ليست مضبوطة ولا معلومة...

ثانياً: الزمان من منظور الشخصيات

أ- الزمان عند الجنرال سيمون بوليفار

قدم الجنرال سيمون بوليفار استقالته من منصب الرئاسة، وغادر المقر الحكومي في اليوم الأول من شهر آذار/مارس، واتجه في عربة غير عربته إلى بيت ريفي هادي بمزرعة فوتشا، وهو بيت يوجد خارج المدينة، أعاره إياه صديقه الرئيس المؤقت دون دومينغو كاثيدو، فكان يستغل ساعات الفجر للتنزه في دروب السهل الشدية، وأنعشه الهواء العليل تحت سماء ذات غيوم سريعة، وأحس بالراحة.

وكان يستمتع إلى السيدة مانويلا ساينث وأحشاؤه تتلوى، وهي تحكي له خفايا الحياة السياسية، ومكائد الصالونات، وتكهينات مجالس النمامين، ويراجع معها المراسلات، ويستمتع إليها وهي تقرأ عليه شيئاً من كتبه المفضلة لديه، ويلعب لعبة الورق معها. وكان يجلس دائماً، على الرغم من عدم انتظام شهيته، إلى مائدة الطعام قبل الساعة الحادية عشرة، ويأكل بيضة فاترة مع كأس نبيذ، وينقر فتاتاً من قشرة الجبن، ويراقب من الشرفة قدوم بريد الأخبار من مدينة سانتافي دي بوغوتا، ويتخيل حالتها في ظل حكومة غير حكومته، وكيفية الحياة من دونه.

وبات ليلته الأولى في بلدة فاكاتاتيفا، وودع مرافقيه المتطوعين، وتابع رحلته مع موكبه، وكان يواصل السير على دابته غير عابئ بالدينا، ويغرق في نوعٍ من التأمل مكفهرٍ، ولا يبدي مظاهر شغفه بالطبيعة، ولا اهتماماً بالقرى التي يجتازها في خب متواصل، ولا بتلويحات الوداع التي كان الناس يلوحون إليه بها، ولا يلقي أدنى نظرة حنان على قطعان الخيول العظيمة في مراعي تربيتها الكثيرة المنتشرة في السهل.

وكان يستريح في ظلال أشجار الثيا متدثراً بدثار صوفي، ويستمتع وسط الضباب إلى أغنيات المجموعات الكورالية. ويعلق أرجوحة نومه، ومهزها هزاً شديداً، ويمضي ليله

¹ _ المرجع نفسه، ص: 287.

متقلباً فيها، ويتكلم وحيداً في الغرفة، ويلتف بالبطانية، ويتكور على نفسه، ويستسلم لسخونة الحمى، ويهذي بما يشبه الصراخ وسط مستنقع من العرق، ويضطجع مفتوح العينين، ويسند رأسه بيديه ككتهما، ويسعل سعالاً شديداً، أو يغادرها، ويطوف عارياً دون قميص حتى وقت الفجر، كي يخفف من حدة آلامه.

وحين كانت تتحسن حالته الصحية، كان يطلب ريشةً وقلماً، ويضع نظارته على عينيه، ويخط الرسائل بخط يده، أو يوقظ كَتَبَتَه في أي وقت، لينجزوا مراسلاته المتأخرة، أو ليملي عليهم بياناته، أو ليرتبوا أفكاره المفاجئة المتفرقة التي تأتيه في تأملات أرقه، أو ليقروا عليه كتاباً لا أهمية له، ويجلس على الطاولة، ويلعب لعبة الورق مع ضباطه.

وزار مناجم الفضة في سانتا آنا، ونزل إلى أحد الأنفاق الأرضية، وألقى بنفسه في مياه نهر راكدة، وسبح دون تعب مدة نصف ساعة. وكان ينزل في غرفة نومه منذ الخامسة مساءً، ويملي على فرناندو ردوده على الرسائل، ويطلب منه بأن يقرأ له عدة صفحات من كتاب حوادث الفجور في ليما، ويستحم بالماء الفاتر، ويبقى ساكناً في أرجوحته، يصغي إلى دفقات الموسيقى الراقصة، ويصفر بضعة أنغام منها، وينهض مندفعاً، ويرتدي ملابسه، ويشارك فيها، ويرقص نحو ثلاث ساعات بحماسٍ كبيرٍ وبراعةٍ شابةٍ رفيعة زميلاته، محاولاً إعادة بناء صرح زمانه الغابر برماد حنينه.

وكان يراقب بفضولٍ وجزعٍ كبيرٍ مناورات الإنقاذ أثناء هيجان المياه، ويشارك فيها، ويشق طريقه وسط الأمطار والرياح، ويتولى القيادة دون أن ينتبه إلى ذلك، ويحكي لمرافقيه حول النار في الشاطئ قصصاً عن الحالات البحرية الحرجة التي عاشها أو يعرف أصحابها، ويجلس بجوار الكابتن أغوسطين دي إيتوربيدي على ضفة النهر وقت الفجر، ويتأملان انسياب مياهه، ويغنيان معا إلى أن يوقظ هياج حيوانات الغابة التماسيح النائمة، وتستيقظ الطبيعة، ويظهر شريط برتقالي في الأفق، وينتشر الضياء.

وحين كان يحس بالضجر وبسكون الرحلة الاضطرابي، كان يأمر بإيقاف المركب، ويتمشى قليلاً، ويخيم في مكان معين، ويقضي ليله ساهراً، يعذبه الحر وأسرار البعوض، وينصت إلى زئير أسد البوما المرعب، ويتبادل الأحاديث مع الساهرين حول المواعد. وكان يستقبل في السفينة جماعاتٍ من أرامل جميع الحروب، ومخدولها ومنكوبها، ويتذكرهم كلهم تقريباً بوضوحه المذهل العجيب، ويحاول أن يواسيهم، وأن يرفع معنوياتهم.

ووصل مدينة سانتا كروث دي مومبوكس قانطاً من أمجاده ومهياً ضد العالم، فتخلّى عن رؤية إشراقات الشمس الفجائية وأشفاق الصباح المؤثرة، واستسلم للذهول، فلم يعد يقرأ، ولم يعد يملي الرسائل، ولم يعد يوجه إلى مرافقيه أي أسئلة تظهر أدنى اهتمام بالحياة، وكان يتدثر بالبطانية حتى في أشد القيلولات قيظاً، ويمكث في أرجوحته، ويغمر عينينه المعبثتين طوال الوقت. وروى للذين استقبلوه في الميناء وقائع استقالته بإيجاز، وحدثهم عن حالة الفوضى التي آلت إليها مدينة سانتافي دي بوغوتا، ودعاهم إلى أن يقدموا دعماً جماعياً للحكومة الجديدة بها، وأخبرهم بأنه ذاهب دون رجعة للاستراحة من الأحزان التي تسببها له شرور الآخرين، وشكرهم على سنوات المجد العشرين التي قدمتها له مومبوكس مدينتهم، ورجاهم ألا يميزوه بأي لقب غير لقب مواطن، وحضر معهم النشيد الديني في كنيسة كونثيبثيون.

وكان يطل من النافذة، وينظر إلى ثمار الجوافة، ويستمتع برائحها العطرة، أو يغمر عينيه، ويستنشقها إلى أن تنفد أنفاسه، فيستنشق معها أريج ذكرياته القديمة التي كانت تفتت روحه، ويستريح من ضغط التحيات والزيارات المتتالية، ويتصنع النوم على ظهره، ثم يغفو، ويهذي بأسلوب شبابه الحسن وجرسه الواضح، فيتكلم عن مدينة كاراكاس التي لم تعد مدينته قائلاً: "هنا لا يحبنا أحد، وفي كاراكاس لا أحد يطيعنا. إننا واقعون في مصيدة."⁽¹⁾

ويواصل ترتيل مزموّر حسراته المريعة عن بقية مجده المهدم الذي حملته ربح الموت مفتتا، وقام بزيارة مصالحة لرفيق حروبه العجوز الجنرال لورينثو كاركامو، وندبا معا أمراضهما، وتحسرا لتفاهة الشعوب وجحود الانتصارات.

وتناول وجبة الغداء على طاولة رائعة في الشرفة الداخلية المطلّة على الفناء في بيت دون كاستولو كامبيللو ببلدة ثمبرانو، وأثنى على أهله وخدمه ثناءً كبيراً، واستلقى في أرجوحته محاولاً نسيان تفاهات الفرنسي ديوكليس أتلانتيك. وكان يغادر الأرجوحة ليلاً، ويجلس إلى جانب الجنرال خوسيه ماريا كارينيو في مقدمة السفينة، ويعدان نجوم السماء الصافية، ويفرقان في صمتٍ طويلٍ.

¹ — غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متهاته. ص: 123.

ووصل إلى بلدة تورباكو مبللاً بالعرق، ومرهقاً ومتشوقاً إلى النوم، وخائر القوة، وواهن العزيمة، وتحول لون بشرته من الخضرة الشاحبة إلى صفرة الهلاك، وأصبح ألم رأسه أبدياً، فحيا بتدفقٍ من كانوا ينتظرونه على الطريق العام، وطلب منهم أن يتركوه وحيداً، ورفض إحصار الطبيب قائلاً: "لو أنني انصعت لما يقوله أطبائي لكنت مدفوناً منذ سنوات."⁽¹⁾

وقرر المكوث بها ثلاثة أيام من أجل الراحة، وعلق أرجوحته في الصالة، ونام قليلاً دون أن يحلم، ثم أيقظه طفل، فأمر بإبعاد الأطفال والدجاجات التي كانت تتجول في البيت طوال الوقت، وبإغلاق النوافذ، وعاد إلى النوم من جديد. ثم استيقظ، وتناول شيئاً من كأس شراب دافئ، واستلقى على الأرجوحة، وغرق في تأملٍ غسقيٍّ طويلٍ، وشرع يراقب صف الخفافيش المعلقة في دعائم السقف، وقال: "سندفن بالصدقات."⁽²⁾

وأمل على فرناندو رسائل ثلاثاً، واستقبل حاكم مقاطعة كارتاخينا دي إندياس الجنرال مريانو مونتيلا وجماعةً منتقاةً من زملائه، بجسد هزيل محزون، وتناول معهم حالة الأمة، وأطلعهم على وضع الحكومة. وبقي في تورباكو تسعة وعشرين يوماً، فتحسنت حالته، وعاد إليه حماسه الذي كان يتمتع به، فاستيقظ مبكراً، وتجول بين الحظائر ساعة حلب الأبقار، وزار معسكر الجنود، واطلع على ظروفهم، وأصدر أوامر صارمة لتحسينها، وتوقف في إحدى مقاهي السوق، وتناول القهوة، وهمّ قافلاً إلى بيته، فاعترض الأطفال الخارجون من المدرسة سبيله، وأحاطوا به عند أحد المنعطفات، وشرعوا يغنون على إيقاع تصفيقاتهم: "يحيا المُحرّر! يحيا المُحرّر."⁽³⁾

فانهر، وأفسحوا له الطريق. وأمر بإعداد غداء احتفالي على شرف الكونت الفرنسي رايجيكور والمواطنة المارتينيكية السيدة كاميل، ومضى إلى ساحة صراع الديكة رفقة مجموعة كبيرة.

يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر حزيران/يونيو، استفاق بعد ساعة من النوم السيئ، فتحرّك في اتجاه مدينة كارتاخينا دي إندياس دون توقف، ودون سعال، ودون إبداء سمات التعب، وألقى الجنرال مريانو مونتيلا في انتظاره مع حشدٍ غفيرٍ، واستقبله

¹ _ المرجع نفسه، ص: 150.

² _ غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في مناهته. ص: 152.

³ _ المرجع نفسه، ص: 173.

السكان بأكاليل من الزهور، ودوت نواقيس الكاتدرائية وموسيقى الفرقة البلدية وطلقات المدافع حتى البحر، فحياهم بالقبعة، ورأى نفسه تحت ضوء من الشفقة، وقارن هذا الاستقبال بدخوله الظافر إلى مدينة كاراكاس... وبقي في الشرفة الداخلية مع مريانو مونتيللا، وعزفت لهما صبيحةٌ نحيفةٌ سبع أغنيات غرامية برقة بالغة جداً، فعجزا عن الكلام، ولبث الجنرال مخدراً في كرسيه الهزاز، وطافيا في أمواج القيثارة، واهتز، وغنى بصوت خافت من أعماقه، وأغمض عينيه، وغرق في تأملٍ عميقٍ.

ثم انتقل إلى بيت الإنجليزي جودا كينغسيلير في الضاحية المحاذية لجبل البيه دي لابوبا، ولم يعد إلى القطاع المسور بمدينة كارتاخينا دي إندياس إلا ثلاث مرات، وكان يذهب وحيداً، ويقف أمام الرسام الإيطالي أنطونيو ميوشي⁽¹⁾، ويشعر بالضعف الشديد، ويتخذ وضعية التصوير بالجلوس على الشرفة الداخلية بين الأزهار البرية والعصافير المنتشية، ولا يقوى على البقاء ثابتاً لأكثر من ساعة واحدة. وتوالت عليه الأخبار السيئة، إذ بلغه نبأ وقوع المارشال أنطونيو خوسيه دي سوكره في كمين، واغتياله برصاصةٍ غادرةٍ في ظهره أثناء اجتيازه موقع بيرويكوس المشؤوم، فحزن لأجله حزناً عظيماً، وسيطر عليه غضبٌ جنونيٌّ، وقَاءَ دماً، وغرق في حداد، وعرض على ضباطه أسوأ ما يخفيه من عفونة في قلبه، ولم يوافق على استقبال أحد سوى الكولونيل البولوني ميشيسلاو نابيرسكي. وجاءه خبر إعلان كونغرس فنزويلا قرار انفصاله النهائي وعدم اتفاقه مع غرناطة الجديدة والإكوادور، فألمه ذلك كثيراً، وقال: "علي أن أقربأه أكثر حدث محزن في حياتي."⁽²⁾

وعظم غضبه، وزاد سخطه، فسهر ليلته إلى أن غلبه النعاس. ويوم الرابع والعشرين من شهر تموز/يوليوز، حل عيد ميلاده، فقدم قائلاً: "سبع وأربعون سنة كاملة، وما زلت حياً."⁽³⁾

وجلس في أرجوحته بقوى متجددة وقلب هائج، ومنح الحرية لمن يريد من ضباطه الذهاب إلى فنزويلا للقتال من أجل وحدة كولومبيا، وعانق كل واحد منهم، ووجه له

¹ أنطونيو ميوشي/Antonio Santi Giuseppe Meucci: رسام ومخترع ومهندس وفيزيائي إيطالي، ولد في مدينة فلورنسا يوم 13 أبريل 1808م، وتوفي في جزيرة ستاتن بالولايات المتحدة الأمريكية يوم 18 أكتوبر 1889م...

² غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 214.

³ المرجع نفسه، ص: 215.

عبارة وداع، وأخذ يأمل في اندلاع حرب جديدة، تعيد الخضرة إلى أكاليل الغار العتيدة. ويوم الخامس من شهر أيلول/سبتمبر، استولى الجنرال رافائيل أوردانيتا على السلطة في سانتافي دي بوغوتا بعد انقلاب عسكري، وأرسل وفداً إلى الجنرال، يعرض عليه رئاسة الجمهورية من جديد، فاستقرت حالته الصحية، وفارقتة الحى وآلام رأسه، واستولى قلقٌ عظيمٌ عليه، ورفض عرض أوردانيتا قائلاً: "لم أرضَ القبول بالقيادة التي أولتني إياها التقارير، لأنني لا أريد أن ينظر إلي على أنني زعيم المتمردين، وبأنني معيّن عسكرياً من قبل المنتصرين."⁽¹⁾

وأبدى استعداداه للعودة إلى سانتافي، ليخدم الحكومة الجديدة جندياً عادياً، وشرع يحضر الآلة العسكرية الدقيقة لاستعادة فنزويلا، وترميم تحالف أكبر أمم العالم، فاجتمع مع ضباطه وراء باب مغلق، ووضع الخطة الإستراتيجية بدقة متناهية، وتحرك، رفقة موكبٍ صغيرٍ وأمتعةٍ مخففة، في اتجاه بلدة سانتا مارتا في فاتح شهر تشرين الأول/أكتوبر دون أي وداع رسمي، ودون إخبار أحد بالأمر سوى عددٍ محدودٍ من أصدقائه، فوصل إلى بلدة تورباكو، وواصل رحلته في اليوم الموالي، وقضى ليلته تحت رحمة الأمطار ورياح المستنقعات الخبيثة، فاشتكى من آلام في ذراعه وكعبه، واشتدت الحى عليه، فنقل فاقد الوعي إلى بلدة سوليداد، واستقبله في بيته صديقُه دون بيدرو خوان فيسبال، ومكث عنده أكثر من شهر، يعاني أنواع الآلام جميعها، ومزقه الانتظار، فبكى ذات مرة نائماً، ثم استيقظ، وأمر بالرحيل الفوري...

وفي الساعة الثامنة من صباح الأول من شهر كانون الأول/دجنبر، أبحر في السفينة الشراعية مانويل بمزاجٍ رائعٍ، واستمتع بكل شيء بحماسة سائح. وعند الظهر، مر مقابل مستنقع بلدة ثيناغا غراندي، ثم ببرز ملاصق لسلسلة الجبال الممتدة حتى البحر، فهبت الرياح، وماجت المياه، وراقب ذلك بأملٍ متنامٍ، وبدأت الدنيا تدور مع الطيور الجارحة في السماء، وبلل العرق البارد قميصه، فأمسكه الجنرال مريانو مونتيلا والكونويل بلفورد هينتون ويلسون حتى لا تلوح به موجة خارج السفينة. وعند الغروب، دخل مياه خليج بلدة سانتا مارتا، فنقل إلى البر، مثل مخلوقٍ مرعٍ، جالساً على حمالة في سكون أول الليل، ثم ترحل بمهابةٍ خارقة، وصافح الجميع فرداً فرداً بأسمائهم

¹ _المرجع نفسه، ص: 221.

وألقيهم، ورفع إلى عربة، واجتاز الشارع القديم صوب مقر الجمارك القديم، وصارت أيامه شديدة الكآبة، فكتب إلى أحد زملائه: "سأمت بعد شهرين على أبعد تقدير."⁽¹⁾ ... استردَّ شيئاً من هدوئه، فرحل في عربة إلى بيت السيد مير الريفي بمزرعة فلوريدا دي سان بيدرو أليخاندرينو في المرتفعات المتصلة بسلسلة جبال سييرا نيفادا، وشم الهواء المشبع برائحة الدبس الساخن، فتهنّد قائلاً: "إنها رائحة سان ماتيو."⁽²⁾⁽³⁾

وسببت له غرفة نومه تهماً آخر في ذاكرته، وتفحصها باهتمام بالغ، فبدا له كل شيء فيها يوحي بذكرى سابقة، ثم استلقى في الأرجوحة، ورأى جبال سييرا نيفادا من النافذة، فتاهت ذاكرته في حجرات أخرى من حيوات أخرى، فقال: "لم أشعر مطلقاً بأني قريب من بيتي مثلما أشعر الآن."⁽⁴⁾

ونام نوماً جيداً في الليلة الأولى، وظهر في اليوم الموالي وكأنه قد شفي من أمراضه كلها، فقام بجولة في معاصر قصب السكر، واطلع على مهارات العمل بها، وأبدى إعجابه بجودة سلالة الجواميس، وتذوق العسل، واستقبل ثمانية ضباط ممن طردتهم فنزويلا بتهمة القيام بأنشطة معادية لحكومتها، وضخموا أمامه من الأخبار الطيبة، فألهموا عينيه ببريق أمجاد آخر، فقال: "لم تتح لنا مطلقاً من قبل فرصة أفضل من هذه للبدء من جديد في الطريق السليم."⁽⁵⁾

وأدرف بثقة لا تفند: "اليوم الذي سأعود فيه إلى وادي أراغوا من جديد، سينهض الشعب الفنزويلي بأسره تأييداً لي."⁽⁶⁾

ورسم خطة عسكرية جديدة بحضورهم، وأعلن أمامهم بلهجة متنبئة بأنه سيبنّي، من الأساس وبشكل دائم هاتنه المرة، إمبراطورية أحلامه الفسيحة، غير أن آلامه تسارعت مثل وابل المحق الشامل، وتضائل جسده إلى درجة ثني معصبي قميصه، وقص بوصة

¹ غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 271.

² يقصد معصرة قصب السكر في بلدة سان ماتيو التي تبعد عن مدينة كراكاس في فنزويلا بأربعة وعشرين فرسخاً، فهناك يتيم الجنرال بوليفار بموت أبيه في الثالثة من عمره، ثم بموت أمه في التاسعة، وترمل في العشرين بعد ثمانية أشهر من زواجه...

³ غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 272.

⁴ المرجع نفسه، ص: 274.

⁵ المرجع نفسه، ص: 275.

⁶ المرجع نفسه، ص: 275.

من ساقى سرواله، ولم يعد قادراً على النوم لأكثر من ساعات ثلاث، وأصبح يمضي بقية ليله مخنوقاً بالسعال، أو مشوشاً في الهذيان، أو يائساً من نوبات الفُواق، أو متأملاً قمم الجبال الثلجية...

وبادر إلى إملاء مسودات وصيته الأخيرة حتى تعب كتبته من الكتابة، ونفد الورق، فأوصى بنقل رفاته إلى فنزويلا مسقط رأسه، وأن يودع كتابا نابوليون في جامعة كاراكاس، وأن يمنح خوسيه بالاثيوس مبلغ ثمانية آلاف بيزو تقديراً لخدماته، وأن تحرق أوراقه التي في كارتاخينا دي إندياس، وأن تعاد إلى مكانها الأصلي النجمة التي قلده إياها كونغرس بوليفيا، وأن يعاد إلى أرملة الماريشال سوكره السيف الذهبي المرصع بالأحجار الكريمة، وأن توزع بقية ثروته على شقيقته وأبناء أخيه. وفرض الجنرال مريانو مونتيللا نظاماً صارماً لحراسته، ومنع دخول أي أحد، مهما كانت رتبته أو لقبه أو منصبه، إلى غرفته، وجاء في أول الليل صفّاً هنديات، يرتلن أناشيدَ جَنَازِيَّةً، فاستوى الجنرال في سريره، وغطى عينيه بذراعه، وصرخ قائلاً: "أبعدوا هذه القناديل من هنا، فهي تبدو وكأنها موكب أرواح".⁽¹⁾

ثم جاءت جوقة جواله، وعزفت طوال يوم كامل تحت أشجار التمر الهندي في الفناء، فاستجاب استجابةً طيبةً لتأثير موسيقاها المهدئة، وتابع إيقاعها برأسه وتصفيقه. ووقت الظهيرة، استرد أنفاسه، وتناول فنجان حساء وقطعا من لب النخل ومن فروج مسلوق، ثم نظر إلى نفسه في مرآة يدوية، وقال: "بهاتين العينين لا يمكن لي أن أموت".⁽²⁾ ثم تعرض لنكسة، وأمر بإبعاد الموسيقيين من البيت، وأمر الكولونيل بلفورد هينتون ويلسون بتحرير رسالة إلى الجنرال خوستو بريثينيو، طلب فيها منه بأن يصالح الجنرال رافائيل أوردانيتا إكراماً له وهو يموت، لتجنب البلاد ويلات الفوضى. وفي الليل، تحدث حتى وقت متأخر جداً مع فرناندو ابن أخيه، وقدم له نصائح حول المستقبل. طلع عليه صباح يوم العاشر من شهر كانون الأول وهو في حالة بالغة السوء، فاستدعي الأسقف إستيفيث على عجل، لكنه رفض الاعتراف، وبقي في الأرجوحة عاجزاً عن الحركة، وهزه كشفٌ مهزّبٌ بأن السباق المجنون بين آلامه وآماله قد بلغ مبتغاه الأخير.

¹ _ غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 283.

² _ المرجع نفسه، ص: 284.

وعلى الساعة الواحدة وسبع دقائق من مساء اليوم السابع عشر من الشهر نفسه، تفحص غرفته ببصيرة أيامه الماضية، وقاطع ذراعيه على صدره، وأسلم روحه لله سبحانه وتعالى...

- الزمان عند خوسيه بالاثيوس

دخل خوسيه بالاثيوس في خدمة الجنرال بوليفار يافعاً، ولم يتوان لحظة واحدة عن الإهتمام به، فكان يسهر إلى جوار أرجوحة نومه، ويعد له الدواء، ويهتم بعدم تضخيم الأخبار السيئة الواردة عليه، ويحاول ما أمكن تأخير إبلاغها له حفاظاً على صحته العلية، وهو الكائن البشري الوحيد الذي كان يعترف له، ويبوح له بأسراره، وأبى إلا أن يموت معه، فقال: "العدل أن نموت معا."⁽¹⁾

وبعد موت الجنرال، بدد أمواله، وبقي في مدينة كارتاخينا دي إندياس، يعيش على الصدقات، وتعاطى الخمرة لإغراق ذكرياته، وهلك متمرغاً في الوحل بسبب هذيان الكحول الإرتعاشي في مغارة متسولين من خريجي الجيش المحرّر، وهو في السادسة والسبعين من عمره...

- الزمان عند السيدة مانويلا ساينث

كانت السيدة مانويلا ساينث تزور الجنرال في غرفته بمدينة سانتافي دي بوغوتا، وتقرأ له على ضوء شمعدان خافت من كتاب "قراءة أخبار وإشاعات انتشرت في مدينة ليما سنة 1826 الحميدة" لمؤلفه نوح كالثادياس، وودعته الوداع الأخير عند رحيله، وبقيت في مدينة سانتافي، بطلب منه، قريبة من قصر سان كارلوس مقر الرؤساء، لتتولى مهمة إطلاعه على كل ما يحدث. وكانت تزوره في مزرعة فوتشا مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، وتحمل له معها حلوى اللوز والسكر، وحلويات الأديرة الساخنة، وسبائك الشوكولاتة مع القرفة، والصحف، وتحكي له أسرار الحياة السياسية، ومكائد الصالونات، وتكهنات مجالس النمامين، وتراجع معه المراسلات، وتقرأ له، ويلعبان الورق مع ضباط المرافقة، ويتناولان الغداء على انفراد.

وكانت تشن حرباً شخصية شرسة ضد الحكومة الجديدة، وطلبت منها وزارة الداخلية تسليم أرشيف الجنرال بوليفار الذي في عهدها، فأبت، وبدأت حملة استفزازات،

¹ _ المرجع نفسه، ص: 286.

أخرجت الحكومة عن طورها، وشرعت تنشر الفضائح، وتطالب بعودة الجنرال، وتوزع المنشورات الممجدة له، وتمسح الشعارات المعادية له المكتوبة بالفحم على جدران البنايات العامة، وتدخل الثكنات العسكرية بزي كولونيل، وتشارك في حفلات الجنود، وفي مؤامرات الضباط، وتولت حتى الأعماق، وبحماسٍ مفرطٍ، دور البوليفارية الأولى في الأمة، وكانت ترد على اعتداءات الصحافة الرسمية بتشهيرات مطبوعة، توزعها على حصانها في شارع كاييه ريال، وتغطي الشتائم التي على الجنرال بشتائم أعظم منها. وفي أحد أيام أحد الأعياد الوطنية، أقاموا حفلة الألعاب النارية في الساحة الكبرى، ووضعوا رسماً كاريكاتورياً مسيئاً للجنرال، فاخرقت الحراس بهجوم على جوادها، ومزقت الرسم، فحاول عمدة المدينة اعتقالها وهي في فراشها، فلم تخف، ولم تجبن، وتدخل بعض أصدقائها وأصدقاء خصومها للحيلولة دون وقوع ما هو أسوأ. أرسل إليها الكولونيل لويس بير دي لاکرو رسالة، أخبرها فيها بتردي صحة الجنرال بوليفار، فبدأت رحلتها فوراً إلى بلدة سانتا مارتا، ولما وصلت مدينة غوادواس، بلغها نبأ موته، فغرقت في ظلال ذاتها دون أي مشاغل أخرى سوى اهتمامها بالصندوقين اللذين يحويان أوراقه ووثائقه.

ونفاها الجنرال فرانثيسكو دي بالولا سانتاندير من البلاد، فخضعت لمصيرها بوقارٍ ملتهبٍ في جامايكا، ثم في ميناء بايتا القذر على المحيط الهادي، فراحت تدخن سجائر الحوذيين، وتطرز، وتصنع حيوانات الحلوى حين يسعفها التهاب مفاصل يديها، وتبيعها للبحارة، واستقبلت في منفاها كلاً من المعلم سيمون رودريغيث الذي شاطرته رماد المجد، والوطني الإيطالي جيبوسيف غاريبالدي، والروائي هيرمان ميلفيل.

ولما تقدم بها العمر، وأقعدها في الأرجوحة كسرٍّ في عظم ردفها، غدت تقرأ البخت أو الحظ في أوراق اللعب، وتقدم للعاشقين نصائح في الحب، وماتت في جائحة الطاعون عن تسعة وخمسين عاماً، فأحرقت الشرطة الصحية كوخها وأوراق الجنرال الثمينة...

- الزمان عند الجنرال خوسيه لاورينثيو سيلفا

رافق الجنرال خوسيه لاورينثيو سيلفا الجنرال بوليفار في رحلته الأخيرة، وكان ينام في النهار، ويشغل في الليل، لأنه كان يخاف من فقدان البصر بسبب زرقاء مياه البحر، مثل ما حدث لعدد من أفراد عائلة والدته، فكان يستيقظ في العتمة، ويتدرب على أن يكون ضريراً ذا فائدة، وينهمك في أعماله الحرفية، وينشر ألواحاً من الأشجار التي

يكشطها هو نفسه، ويركب الأجزاء الخشبية كاتماً صوتَ المطرقة حتى لا يزعج أحلام الآخرين النائمين، وبهر الجميع بأعماله النجارية الفنية التي يصنعها في الظلام. وقرر الجنرال بوليفار إرساله مع الضباط الذاهبين إلى فنزويلا للحرب من أجل وحدة كولومبيا، فرفض ذلك الشرف، وأبى إلا أن يبقى إلى جانبه، وقال: "هذه البطالة التي نحن فيها هي حرب أيضاً، ومن أقسى أنواع الحروب. لذلك سأبقى هنا، ما لم يأمر سيدي الجنرال بشيء آخر."⁽¹⁾...

- الزمان عند الضباط المرافقين

رافق الضباطُ الجنرالَ بوليفار في رحلته الأخيرة، وكانوا يتجادلون، ويتحاورون بأصوات صارخة، ويلعبون الورق ليلاً ونهاراً في الممرات، وفي الرواق الداخلي لبيت الجنرال، ويصرخون، ويستدعون مجموعات العزف والغناء والرقص، ويواصلون الحديث حول النار المشتعلة في الفناء. ولما وصلهم خبر مقتل الماريشال أنطونيو خوسيه دي سوكره غدرا، كفوا عن لعب الورق، وشرعوا يقضون الليالي ساهرين، ويتبادلون الأحاديث في الفناء حتى وقت متأخرٍ حول النار المشتعلة بشكل دائم لإبعاد البعوض، أو في أراجيحهم المعلقة على مستويات مختلفة بحجرة نومهم المشتركة، وأخفوا على الجنرال أمر إصابة فرسان الحراسة وجنودها بداء السيلان.

وذهب بعضهم للحرب في فنزويلا بغية وحدة كولومبيا، فخرجوا، كما كانوا يفعلون في العمليات السرية ضد المستعمر الإسباني، دون أسلحة، وفي ملابسهم المدنية، متفرقين ومن دروب مختلفة عبر جامايكا وكوراساو⁽²⁾ وغواخيرا⁽³⁾، حتى لا تكشف هوياتهم، ويتم تعرفهم. وصار من بقي منهم رفقة الجنرال ينامون في أي وقت يغلبهم النعاس فيه، وأصبحوا نذرين، ويلعبون الورق ليلاً ونهاراً...

¹ _ غابرييل غارسيا ماركيز: الجنرال في متاهته. ص: 216.

² _ كوراساو/Curaçao: جزيرة في جنوب البحر الكاريبي مقابل دولة فنزويلا، وهي تابعة لدولة هولندا. عاصمتها هي مدينة فيليمستاد/Willemstad، ولا يعرف أصل دقيق لاسمها، ويظن أنها من الكلمة البرتغالية "coração" بمعنى القلب، لوقوعها في قلب الطريق التجاري لأميركا الجنوبية...

³ _ غواخيرا/Guajira: مقاطعة تقع في أقصى شمال دولة كولومبيا...

خاتمة:

عرفت أحداث رواية "الجنرال في متهاته"، عموماً، سيراً زمانياً تصاعدياً عمودياً، وعرفت تسلسلاً وترتيباً واضحين. إذ كانت وقائعها تتحرك، وتتنامى، وتتناسل باستمرار، لأن الزمان لا يتراجع، ولا يتوقف، بل يشق طريقه إلى الأمام، ويسير في اتجاه نهايته دائماً. ورُغم ما قيل عن سيطرة الترتيب الزمني، وغلبة التسلسل الحداثي، فإن السارد استعمل تقنيات، كسرت سير الزمان العادي، منها الاسترجاع، والاستباق، والوقفة، والتسريع. وعلى الرغم من وجود هاته التقنيات، فإن ذلك لم يُخلّ بالتسلسل المنطقي العادي للرواية، ولم ينل من غايتها، إذ إن الروائي كان يطوي الأيام والشهور والسنوات سعياً وراء وضع نهاية أرادها لشخصياته القطبية. ومن هنا، نستنتج أنها خطية سببية، تنطلق من نقطة، وتنتهي إلى أخرى في تسلسل زمني صارم.

وقد عرض السارد وجهات نظر أبطله إلى الزمان تبعاً لمشاربهم المختلفة ومعتقداتهم المتعارضة، ومنج بين ما هو تاريخي وما هو متخيل، معتمداً عنصر التاريخ إطاراً عاماً، إنفتح عليه بشكل غير واضح، وقع هذا الانفتاح من خلال التفاعل مع شروط مرحلة تاريخية معينة. وإذا كان بعض الروائيين ينطلقون من الحقيقة التاريخية أو من التاريخ الواقعي المتحقق في اتجاه تقنية التخيل، وهو ما يعرف بعملية أُخيلة التاريخي، فإن غابرييل غارسيا ماركيز قد تجاوز ذلك إلى تقنية مضاعفة، أضافت إلى قضية أخيلة التاريخي عملية أرخنة الخيالي، وأقام نوعاً من الحوار أو صنفاً من المواجهة بين الرواية والتاريخ، إذ عاد إليه دون أن ينغمس فيه كلياً، أو يجعله غاية في حد ذاته، بل اتخذته وسيلةً للتمويه، وإضفاء شيء من الواقعية على عمله، وبلوغ الحقيقة الروائية.

قائمة المصادر والمراجع:

أ_باللغة العربية:

أ_1_الكتب:

1. جان ريكاردو: قضايا الرواية الحديثة. تر: وت: صياح الجهم، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق_سوريا 1977م.
2. جيرار جينيت وآخرون: نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير. تر: مصطفى ناجي، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، دار الخطابي للطباعة والنشر، مطبعة منشورات كوث، ط: 1، البار البيضاء_المغرب 1989م.
3. الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. حققه، وفصله، وعلق على حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد. دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ط: 5، بيروت_لبنان 1401هـ/1981م.
4. قدامة بن جعفر: نقد الشعر. تح: وت: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، بدون تاريخ.

أ_2_المعاجم:

1. أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. ط: 2، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت_لبنان 1399هـ/1979م.
2. علي بن محمد الشريف الجرجاني: التعريفات. إعتنى به: مصطفى أبو يعقوب. ط: 1، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت_لبنان، دمشق_سوريا 1427هـ/2006م.
3. محمد بن منظور: لسان العرب. طبعة مراجعة ومصححة بمعرفة نخبة من السادة الأساتذة المتخصصين. دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة_مصر 1434هـ/2013م.

أ_3_الروايات:

1. غابرييل غارسيا ماركيز: الخبز في مئذنته. تر: صالح علماني. الناشر: دار المدى للثقافة والنشر، ط: 1، دمشق_بيروت_بغداد، سوريا_لبنان_العراق 2007م.
2. _____: الحب في زمن الكوليرا. تر: نوري سامي الجندي. الناشر: دار الجندي للنشر والتوزيع، دار الشفيق للنشر والتوزيع، ط: 1، دمشق_سوريا 2009م.
3. _____: حكاية بحار غريق. تر: محمد علي اليوسفي. الناشر: دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 1، دمشق_سوريا 2008م.
4. _____: خريف البطريق. تر: مارك جمال. الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 1، بيروت_القاهرة_تونس، لبنان_مصر_تونس 2018م.
5. _____: ذكرى عاهراتي الحزينات. تر: رفعت عطفة. الناشر: دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 1، دمشق_سوريا 2005م.
6. _____: عشت لأروي. تر: صالح علماني. الناشر: دار المدى للإعلام والثقافة والفنون، ط: 5، بغداد_العراق، بيروت_لبنان، دمشق_سوريا 2015م.
7. _____: في ساعة نحس. تر: كامل يوسف حسين. الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط: 4، بيروت_لبنان 2009م.
8. _____: قصة موت معلن. تر: صالح علماني. الناشر: دار المدى للثقافة والنشر، ط: 6، دمشق_بيروت_بغداد، سوريا_لبنان_العراق 2012م.
9. _____: ليس لدى الكولونيل من يكتبه. تر: صالح علماني. الناشر: دار المدى للثقافة والنشر، ط: 3، بيروت_دمشق_بغداد، لبنان_سوريا_العراق 2014م.
10. _____: غابرييل غارسيا ماركيز: مائة عام من العزلة. تر: محمد الحاج خليل. الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط: 4، بيروت_لبنان 2010م.

أ_4_المجموعات القصصية:

1. غابرييل غارسيا ماركيز: 12 قصة مهاجرة. تر: حسام أبو سعدة. الناشر: دار الكتاب العربي، ط: 1، دمشق_القاهرة، سوريا_مصر 2006م.
2. _____: إيرينديرا البريئة. تر: كامل يوسف حسين. الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط: 3، بيروت_لبنان 2009م.
3. _____: حبيج غرباء. تر: فائز خنيسة. الناشر: دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 1، دمشق_سوريا 2005م.

ب_ باللغة الفرنسية:

ب_1_ الكتب:

1. Gérard Genette: Figures III. Editions du Seuil, Paris_ France 1972.
2. Jean Michel Adam: Le récit. Que sais_je? 1^{ère} édition, Presses Universitaires de France (P. U. F), Paris_ France 1984.
3. Roland Bourneuf _Real Ouellet: L'univers du roman. 1^{ère} édition, Presses Universitaires de France (P. U. F), Paris_ France 1972.

ب_2_ المعاجم:

1. Jean Dubois _René Lagane _Georges Niobey _Didier Casalis _Jacqueline Casalis _Henri Meschonnic: Larousse: dictionnaire du français contemporain. Librairie Larousse, Paris_ France 1971.
2. Oswald Ducrot _Tzvetan Todorov: Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. Collections Points, Editions du Seuil, 1^{ère} publication, Paris_ France 1972.
3. Paul Robert: Le grand robert de la langue française: Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française. Entièrement revue et enrichie par Alain Rey. Deuxième édition, Paris_ France 1985.